تاريخ استقبال المقال: 2018/03/13 تاريخ قبول نشر المقال: / /2016 تاريخ نشر المقال: 2018/12/01

فكرة المواطنة في المشروع الحضاري عند مالك بن نبي

أ.د حمداوي محمد-جامعةعبد الحميد بن باديس مستغانم-الجزائر

د. قريد سمير-جامعة 8 ماي 1945 قالمة-الجزائر

gridsamir@hotmail.fr

الملخص:

يسعى هذا العمل إلى استكشاف مبادئ المواطنة في فكر العلامة مالك بن نبيففيالواقع فإنمقولة المواطنة حاضرة بقوة في التراث الفكري لهذا المفكر الإسلامي الكبير الذي له علاقة بإصلاح المجتمع وإقامة الديمقراطية وبناء الحضارة، فالمواطنة بالنسبة إليه ليست مجرد معادلة بسيطة بين الالتزام بالواجبات والمطالبة بالحقوق، بل هي أكثر من ذلك فهي حالة من الوعي يتم فيها تغليب الواجبات على الحقوق، من أجل الوصول بالمجتمع إلى مستوى حضاري. وعلى هذا الأساس، فإن الارتقاء بالكائن الاجتماعي إلى مستوى المواطنة ينبغي أن ينطلق من الاستثمار في الإنسان بواسطة التربية الاجتماعية الهادفة إلى إعداد إنسان متكامل ومتوازن ؛وذلك حتى يكون في مستوى النهوض بالمجتمع بتحويل الأفكار إلى ممارسة قادرة على الاستجابة لحاجات المجتمع المتعددة.

الكلمات المفتاحية: فكرة المواطنة-المشروع الحضاري-التحرر-مالك بن نبي.

The idea of citizenship in the civilizational Project at Malik bin Nabi

Abstract:

This work aims to explore the principles of citizenship in the thought of the scholar Malik bin Nabi. Indeed, the notion of citizenship is present in the intellectual heritage of this great Islamic thinker, which has to do with reforming society, establishing democracy and building civilization.

For him, citizenship is not just a simple equation between commitment to duties and the demand for rights, it is more than that, that is a state of awareness in which rights are given greater priority in order for society to reach a civilized level.

Based on this, the fact of promoting the social being to the level of citizenship should rely on investing in the citizens through social education aiming at making out of them integrated and balanced human beings, so that they can meet the requirements of social advancement by transforming the ideas in to practice capable of responding to the diverse needs of society.

Keywords:The idea of citizenship, Civilization Project,Freedom,Malik bin Nabi.

المقدمة

إذا كان هناك مفكر عربي إسلامي حمل في القرن العشرين، الانشغال الحضاري الذي حمله في القرن الرابع عشر، العلامة عبد الرحمن ابن خلدون فإنه بلا نظير ولا منازع فقيه الحضارة العلامة مالك بن نبي.

فأما صاحب المقدمة فقد أرقه أن تستبدل السلطة السياسية مصدرها الشرعي الرباني بمصدر مادي تمثله قوة العصبية وأن تكون رهينة لتغيرها من القوة إلى الضعف، ومن التحلي بالأخلاق الحميدة إلى الانغماس في الملذات والتفنن في أنواع الترف والبذخ، فتتغير بتغيرها السلطة السياسية، وتنتقل الدولة كلها من الازدهار إلى الانحطاط، ثم تترك الحضارة الإسلامية، بعد إشراقها على العالم زمنا طويلا جميلا مكانها لحضارة يصنع مجدها غير المسلمين.

وأما صاحب الظاهرة القرآنية فقد أرقه هو الآخر هذا الانحطاط، الذي كان الناس قد عرفوا إرهاصاته في عصر ابن خلدون، والذي يعني القول به أن الأمة لها سابق عهد بالتحضر والازدهار. فما حصل فعلا هو أن المسلمين لم يعجزوا عن تسخير ثروة، ولا عن تنمية اقتصاد، ولا عن بناء حضارة كما يلح ابن نبي في الملاحظة على ذلك، بل عجزوا عن المحافظة على هذا البناء، ومواصلته ببناء جديد يناسب العصر، ويرقى بالإنسان المسلم إلى مستوى الخصم القوي في صراع الحضارات، فكان ذلك مصدر تخلفهم، وبرز على مسرح الأحداث القادرون على إنتاج عناصر الحضارة وإعادة إنتاجها، وعلى صيانتها وتنميتها وتطويرها باستمرار.

وإذا كانت حضارة كل أمة تنطلق من ثقافتها، حين تبدأ أو حين تعيد، فإن الأمة الإسلامية لا تعدم ثقافة تنطلق منها لإعادة بناء حضارتها من جديد، فلقد بنت بالفعل انطلاقا من هذه الثقافة حضارة راقية أشرقت شمسها على الغرب قرونا،وإن انطلاقة جديدة لهذه الحضارة لقابلة للتحقيق، إذا نحن عرفنا الأسباب التي جعلت المسلم يتوقف عن إنتاج حضارته الخاصة، أو بعبارة أخرى،الأسباب التي جعلت الأمة الإسلامية خارج التاريخ زمنا طويلا وجعلت غيابها الحضاري فرصة مناسبة لانحرافات الحضارة الغربية، التي قامت على جهودها، ولاستهتارها بالقيم الروحية التي هي إرث للبشرية جمعاء.

ولا شك أن هذه الأسباب، كما يؤكد على ذلك صاحب الظاهرة القرآنية، كامنة في نفس الإنسان المسلم وفي تراثه الفلسفي والعلمي والأدبي والفني، وفي أسلوب حياته، وفي علاقاته اليومية، وفي تاريخ أمته المثقل بالنكبات الطاغية على الإنجازات، وفي رؤيته إلى العالم الفاقدة للمعالم الهادية،إن هذه الأسباب هي التي يجملها مالك بن نبي في مشكلة الحضارة، التي تنتظم كل المشكلات السياسية والأخلاقية والدينية والاقتصادية والثقافية والتربوية والنفسية.

وإذا كان مالك بن نبي يلقي بمسؤولية البناء الحضاري على الإنسان المسلم، فذلك لأنه محور الفاعلية في حركة الحضارة والمحدد للقيمة الاجتماعية للعلاقة بينه وبين الطبيعة المسخرة له وبين الزمن الضروري للخروج من هذه العلاقة بمنتج حضاري مشبع لحاجة نوعية. في هذا الإطار العام الذي يجعل الإنسان محورا للمشكلة الحضاريةسوف نحاول معالجة فكرة المواطنة في المشروع الحضاري الذي اقترحه مالك بن نبي للنهوض بالأمة الإسلاميةمتتبعين الأفكار الذي تمت بصلة إلى الموضوع، في بعض آثاره مباشرة، أو فيما أنجز من دراسات حول الأفكار التي نادى بها، للتربية على المواطنة، والتعبئة بالديمقراطية والتثقيف بها، دون استعارة ساذجة ولا نسج متجاهل للخصوصيات الوطنية.

أولا: مفهوم المواطنة عند مالك بن نبي

إذا كان مفهوم المواطنة قد ارتبط بالدولة القومية التي يتحول فيها الأفراد من موقع الرعايا التابعين إلى موقع المواطنين المشاركين، من خلال الاعتراف بحقوق الفرد المشروعة، لا بوصفه عضوا في مجتمع سياسي، ولكن بصفته إنسانا، كما نص على ذلك إعلان حقوق الإنسان[1]،فإن مفهوم المواطنة عند مالك بن نبي اتخذ معنىً مغايرا حيث كانت له وجهة نظر خاصة للتوازن بين حقوق وواجبات المواطنة الفعالة، إذ اعتبرهما متلازمتين واعتبر أن تقديم المطالبة بالحقوق على أداء الواجبات معادلة صفرية، والأصح أن نقوم بالواجب حتى نحصل على الحق وهي المعادلة التي اعتبرها كفيلة بتحقيق التقدم الحضاري[2].

وفي هذا السياق يقول مالك بن نبي في كتابه " **شروط النهضة**": "فالحق ليس هدية تعطى، ولا غنيمة تغتصب وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، فهما متلازمان، والشعب لا ينشئ دستور حقوقه إلا إذا عدل وضعه الاجتماعي المرتبط بسلوكه النفسي"[3].

ويضيف قائلا:"ولكل سعي–أي القيام بالواجب–أثره وإن قل، إذ هو يساهم في بناء التقدم والنهضة تماما كما تساهم القشة الصغيرة في بناء عش الطير"[4].

كما يرفض مالك بن نبي تغليب البعد الحقوقي للمواطنة على البعد الالتزامي(الواجبات)، لأنها حسب رأيه تفرغ مفهوم المواطنة من بعدها النفسي والروحي، ولذلك يقول: "لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة ونسينا الواجبات، ونسينا أن مشكلتنا ليست فيما نستحق من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات وما يراودنا من أفكار، وفي تصوراتنا الاجتماعية، بما فيها من قيم الجمال والأخلاق، وما فيها أيضا من نقائص تعتري كل شعب نائم"[5].

وأكثر من ذلك، فإن مالك بن نبي، وهو يغلب فكرة الواجب على الحق، يعتبر أن القيام بالواجب من أولويات المجتمع المتحضر، ويدلل على ذلك بقوله :" إن الباب الثاني الذي ينبغي أن تعود منه للحضارة هو باب الواجب وأن نركز منطقنا الاجتماعي والسياسي والثقافي على القيام بالواجب، أكثر من تركيزنا على الرغبة في نيل الحقوق لأن كل فرد بطبيعته تواق إلى نيل الحق، ونفور من القيام بالواجب، لذلك على مثقفينا وسياسيينا ومن يمثل كل سلطة أن يوجهوا الهمم إلى الواجب[6].

على هذا الأساس، يمكن القول بأنهعدم نضجالوعي بحقوق المواطنة وواجباتها، حسب مالك بن نبي يعتبر من أخطر الأزمات الاجتماعية والنفسية التي حالت دون تأسيس ثقافة المواطنة في المجتمع الجزائري.فالمواطن الذي يعزف، في هذا المجتمع، عن أداء عدد كبير من واجباته تجاه مجتمعه، لا يتردد عن تبرير ذلك بكونه محروما من أبسط حقوقه، كاشفا بذلك عن ذهنية تعطي الأسبقية للمطالبة بالحق على الالتزام بالواجب، بل عن تصور للحق والواجب بصفتهما ظاهرتين غير متلازمتين، بل مستقلتين، ومن هنا عدم اكتراث الإنسان الجزائري بتقديم أي واجب يناسب حقا أمكنه الحصول عليه.

والواقع أن هذا الاختلال في درجة وعي المواطن بحقوق المواطنة وواجباتها، يمكن أن يفسر كالتالي:

- تنازل المواطن الجزائري عن حقوقه لمصلحة السلطة، وهذا نتيجة اليأس والإحباط الذي كرسته التجارب السياسية السابقة.
- تنازل المواطن الجزائري عن حقوقه، حتى لا يلتزم بأداء الواجبات المقابلة لها[7].

ومن جهته،فإن عزميبشارة يؤكد أن نظرة مالك بن نبي إلى مفهوم المواطنة تختلف عن نظرة سابقيه من المفكرين، لأنه يحذر من تبني قيم الديمقراطية من دون أن يتم العمل بها، كما لا يرى حاجة لنسخ

العملية التاريخية التي قادت إلى تشكل المواطنة في الدول الأوربية على واقع المجتمعات العربية الإسلامية. ويشدد في الوقت نفسه على أن الديمقراطية، بصفتها قيمة اجتماعية، لابد من التعبئة بها والتثقيف عليها، ولابد أن يتخلل التثقيف والتربية عليها فعل الخلق الديمقراطي، وإلا كان الإصلاح شكليا ومنسوخا وميتا[8].

ثانيا: شروط تحقق المواطنة في المشروع الحضاري عندمالك بن نبي

إنالدارس لفكر مالك بننبي، سرعان ما يكتشف أَنَّهُ –دون معاصريه من المفكرين المسلمين–قد أولى اهتماما أساسيا وعميقا، وعناية خاصة، للإنسان المسلم، بصفته تكوينا شخصيا وواقعا اجتماعيا متابعا في ذلك علله ونقائضه ومحللا أبعاد الظواهر والمشكلات الاجتماعية التي تحيط به، ومقترحا الحلول في إطار من الرؤى المستقبلية المتفائلة[9].

وتبعا لذلك، يرى مالك بن نبي أن محاولات الاستنهاض والتقدم، بالنسبة إلى العالم الإسلامي ليست قضية إمكان مالي، بقدر ماهي تعبئة للطاقات الاجتماعية، أي الإنسان والتراب والوقت، في مشروع تحركه إرادة حضارية لا تحجم أمام الصعوبات، فالتقدم المنشود للدول لا يتم إلا عن طريق الاستثمار في الإنسان كرأس مال حقيقي[10].

وفي هذا السياق، يضرب مالك بن نبي مثالا عن الصين التي تقدمت، في نظره، اقتصاديا بسرعة مرموقة لأنها طبقت منذ اللحظة الأولى في خطط تنميتها، مبدأ الاتكال على الذات، أي بالتعبير الاقتصادي مبدأ الاستثمار الاجتماعي في الإنسان الصيني، والتراب الصيني، والزمن المتوفر في كل أرض[11].

واضح إذن أن مالك بن نبي يتوجه، في مشروعه الحضاري، بالأساس إلى إعداد الإنسان(المواطن) الجزائري وتنمية كفاءته، وبنائه ثقافيا وخلقيا ونفسيا واجتماعيا،في إطار ذاتيته الوطنية وامتداداتها التاريخية والحضارية، بما يجعله فاعلا في مجتمعه، وقادرا على استئناف دوره الحضاري من جديد.

أما عن شروط تحقيق المواطنة نظريا وعمليا، كما يمكن استكشاف ذلك في المشروع الحضاري عند مالك بن نبي، فتتمثل، في تقديرنا،فيما يلي:

1. تفعيل فكرة المواطنة

يركز مالك بن نبي، في معالجته لمشكلة الأفكار، على الدور الوظيفي للفكرة، أي على فعاليتها الاجتماعية وليس على قيمتها الفلسفية المجردة، ففي منطق هذا العصر لا يكون إثبات صحة الأفكار بقيمتها على المستوى الفلسفي أو الأخلاقي، بل بقيمتها على المستوى العملي: فالأفكار لا تكون صحيحة إلا إذا هي ضمنت النجاح[12].

وبعبارة أخرى، فإن الفكرة مهما كانت قيمتها، الفلسفية أو العلمية أو الأدبية أو الفنية، تظل بالنسبة لمالك بن نبي خاطئة حتى تثبت صحتها بتطبيقها عمليا، والانتفاع بها فرديا واجتماعيا. فصحة الفكرة إذن لا تكون إلا بنفعيتها الأمر الذي يبرز بوضوح براغماتية التفكير عند مالك بن نبي، وهي براغماتية غير غريبة أبدا عن الثقافة العربية الإسلامية، إذا علمنا بأن العلوم الرياضية والتجريبية عند المسلمين لم تتطور إلا لغاية عملية، وعموما لم تتطور إلا لدفع مضرة أو لجلب منفعة، كما هو الشأن بالنسبة للخوارزميات، التي بابتكارها توخى الخوارزمي الدقة والصواب في قسمة التركة بين الورثة، مهما تنوعت أنصبتهم، والتي تعدد استعمالها بعد ذلك، وحققت بها العلوم التطبيقية نتائج باهرة، ومنافع كثيرة للناس.

ولقد مكنت هذه الرؤية مالك بن نبي من تبيين قيمة الأفكار وقياس فعاليتها في العالم الإسلامي الراهن وبالتالي معرفة طبيعة العلاقة التي تربط مسلم اليوم بعالم الأفكار، حيث يقول" إن حضارة ماهي

نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، فيبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى[13].

يفهم من هذا أن جوهر التغيير الاجتماعي لا يمكن أن يتم إلا بفكر فعال، يجيب عن كل المشكلات التي تواجه الإنسان، بصورة تجعل حركته في التاريخ تنسجم مع السنن الإلهية للكون، وهذا يعني عدم بقاء التغيير كتأمل في عالم الأفكار، دون تحويله إلا واقع اجتماعي يجسد طموحات الإنسان في عالم الأشياء[14].

استنادا إلى الطرح الذي قدمه مالك بن نبي، نستطيع القول بأن إعادة الاعتبار إلى الإنسان، وتفعيل دوره في عملية التغيير الاجتماعي، ركيزة أساسية في سبيل تفعيل فكرة المواطنة، التي تظهر في صورة ممارسات اجتماعية عبر المجتمع المدني والثقافة المدنية، والشخصية المدنية، "وهي البنى التي تمثل آلية التحرير الملائمة لإنتاج الفاعل الإنساني، أو الذات الإنسانية النشطة والمنظمة، إنها تمنح الفعل الإنساني قوة خلاقة، يمكنه من خلالها معارضة الهيمنة ورفضها باسم الحرية والحق الإنساني"[15].

بهذا المعنى، فإن تحويل فكرة المواطنة من الخطابات إلى الفعل، تتطلب أدوات مؤسسية وفاعلين اجتماعيين يمتلكون من الاستعدادات الفكرية والمعرفية، والتشبع بقيم المواطنة، ما يؤهلهم لبلورة مشروع حضاري ديمقراطي بمشاركة كافة الشرائح الاجتماعية، ولا يكون ذلك إلا بالتضامن الإرادي بين أولي الأمر:الإرادة العلمية القوية في الوقوف على المشكلات الحقيقية للمجتمع، وفي البحث لها عن الحلول المناسبة، والإرادة السياسية في الأخذ بآراء أولي الأمر من العلماء، وتبني مشاريعهم ورعايتها، وتنظيم الجهود وتوفير الوسائل المادية والمعنوية لتحقيق مقاصدها على أرض الواقع، مع ربط الجسور مع دول العالم قصد الاستفادة من تجاربها،والاستفادة منها في إطار علاقات تعاونية عادلة.

2. تفعيل الرابطة الاجتماعية

يرى مالك بن نبي أن عالم الأفكار وعالم الأشياء لا وجود لهما إلا بوجود عالم الأشخاص، وإن عالم شبكة العلاقات الاجتماعية متوقف على الحالة التي هو عليها عالم الأشخاص. وبقدر ما تكون هذه الشبكة متصلة بمبرراتها الروحية، تكون قوة تماسك خيوطها، ويكون بذلك مردود النشاط المشترك مرتفعا.ولتحقيق هذا الهدف يركز مالك بن نبي على عملية تكييف الإنسان المسلم اجتماعيا، بطريقة تجعل كل تصرفاته وسلوكياته تتوافق مع النزعة الاجتماعية ولا تتعارض معها[16].

بهذا المعنى، يعطي مالك بن نبي أهمية كبيرة للرابطة الاجتماعية، التي تسهم في تأسيس مجتمع متمدن تتصهر فيه العلاقات الاجتماعية، حيث يقول: " إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه (فردا) (Individu) إلى أن يصبح (شخصا) (Personne) وذلك بتغيير صفاته البدائية، التي تربطه بالنوع، إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع، وهذه العلاقات الخاصة بعالم(الأشخاص) هي التي تقدم الروابط الضرورية بين الأفكار والأشياء، في نطاق النشاط المشترك الذي يقوم به مجتمع ما[17].

يمكن القول، من الناحية السوسيولوجية، أن الرابطة الاجتماعية، بتعبير مالك بن نبي، هي التي ألهمت المجتمع الجزائري الكفاح المسلح ضد الاحتلال الفرنسي، وهي التي أدت إلى تأكيد الهوية الوطنية القائمة على مبدأ التوحد ضمن كتلة موحدة لمقاومة خطر خارجي، يرمز لها من الناحية الثقافية الشعبية

بمفهوم (الخاوة)، إنه التعبير الذي يجسد حالة من الشعور بالثقة والارتباط الأخوي بين الأفراد مع تجاوز كافة الاختلافات الجهوية أو الاجتماعية أو الحزبية، من أجل تحقيق غاية مشتركة هي التحرر الوطني.

كما يشرح مالك بن نبي فاعلية الروابط الاجتماعية في ترقية المجتمع والنهوض به، وتوحيد أفراده حول قيم مشتركة(قيم المواطنة) بقوله: "ففاعلية الأفكار تخضع إذن لشبكة العلاقات الاجتماعية، أي إننا لا يمكن أن نتصور عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء، دون هذه العلاقات الضرورية، وكلما كانت العلاقات أوثق كان العمل فعالا مؤثرا"[18].

وبناء على ذلك، يصل مالك بن نبي إلى التأكيد على نتيجة مفادها:

1- أن مجتمعا لا يمكنه أن يؤدي نشاطه المشترك دون أن توجد فيه شبكة من العلاقات (الروابط الاجتماعية) التي تؤلف عناصره المختلفة النفسية والزمنية.

2- وأن كل علاقة هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي، والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع[19].

3 ـ تفعيل التربية الاجتماعية

من المحددات المنهجية الأساسية، التي أكد مالك بن نبي على أهمية مراعاتها، كلما كانت هناك محاولة لصياغة مشروع النهوض في العالم الإسلامي، وخاصة في مرحلة ما بعد الاستقلال، اعتبار أن الإنسان المسلم المتكامل هو النموذج التربوي للفرد المنشود، أو الهدف الذي ينبغي على التربية عندنا أن تجعله محور اهتمامها وغاية جهودها من أجل تحقيقه على أرض الواقع[20].

فإذا كان الإنسان هو الجانب الأكثر حيوية في معادلة الحضارة، فإن الذي يمنحه الحيوية والفاعلية هو الثقافة الوطنية، حينما توجه تربويا، أي حينما تكون منطلقا للعملية التربوية ومادة لها، وبعبارة أخرى حين تكون مصدرا للفلسفة التربوية والمقررات والخطط والمناهج والوسائل وتكون قابلة لتحقيق غايات عملية مشبعة لحاجات اجتماعية. فالإنسان الكامل هو ذلك الإنسان الذي يتمثل أفضل ما في ثقافته الوطنية، ويطوعها بالتدريب المتواصل حتى تصبح مصدرا للإبداع والاختراع والخلق، في جميع الميادين الحيوية، على غرار كل الثقافات التي انطلق منها أهلها وبنوا حضاراتهم الخاصة.

وتأكيدا على هذه الحقيقة يقول مالك بن نبي: " فالتاريخ يبدأ بالإنسان المتكامل الذي يطابق دائما بين جهده وبين مثله الأعلى وحاجاته الأساسية، والذي يؤدي في المجتمع رسالته المزدوجة، بوصفه ممثلا وشاهدا"[21].

لقد تفطن مالك بن نبي إلى أهمية التربية الاجتماعية في تحقيق الاندماج الاجتماعي، وتنمية وعي الإنسان بأهمية العلاقات الاجتماعية، حيث يقول: " وكلمة تربية اجتماعية لا تعني شيئا إذا لم تكن في الواقع، وبما تحمل من معنى، وسيلة فعالة لتغيير الإنسان، وتعليمه كيف يعيش مع أقرانه، وكيف يكون معهم مجموعة القوى التي تغير شرائط الوجود نحو الأحسن دائما، وكيف يكون معهم شبكة العلاقات التي تتيح للمجتمع أن يؤدي نشاطه المشترك في التاريخ[22].

يمكن القولإن هذا الطرح يتفق مع المفهوم الحديث للتربية على المواطنة،على اعتبار أنها ليست تربية معرفية بل "تربية قيمية" بالدرجة الأولى، ذلك أن الاهتمام بالجانب المعرفي لا يقصد منه المعرفة فحسب، بل يقصد به كذلك التوجه من خلاله إلى تغيير سلوك الأفراد وقيمهم، وتربيتهم على ثقافة المساواة

واحترام حقوق الغير وقبول حق الاختلاف، وذلك من خلال عملية بناء وتراكم وتطور تدريجي طويل الأمد، يأخذ بعين الاعتبار درجة تطور المجتمع ووعيه، وما يساعد في خلق أجواء مناسبة للتغيير[23].

وكما تفطن مالك بن نبي إلى هذه الأهمية بالنسبة للتربية الاجتماعية، فإنه تفطن كذلك إلى مقاصد أخرى تحققها التربية على المواطنة إذ يرى أنها تؤدي إلى الإدماج الفعال والديناميكي للفرد في المجتمع، بحيث لا يتم توجيه هذه التربية إلى دعم الديمقراطية كنظام سياسي فقط، بل يتم توجيهها إلى تنمية الديمقراطية كأسلوب في الحياة، أي كأسلوب يدعم التعايش، وينمي القدرة على التصرف المدني والمسؤول، استنادا إلى قيم العدالة والحرية والمسؤولية والمساواة، والتعدد والتسامح، والاحترام المتبادل، والمشاركة[24].

وعن هذه القيم الأخلاقية في بعدها الاجتماعي، يرى مالك بن نبي أنها تلعب دورا مهما في قيام المجتمعات وتطويرها، كما أن بناء شخصية الفرد، حسب رأيه، لا يتحقق دون أساس أخلاقي، ففاعلية المجتمعات تزيد أو تنقص بمقدار ما يزيد فيها تأثير الأخلاق، لأن الأخلاق شرط أساسي في تنظيم العلاقات الاجتماعية[25].

هذه الحقيقة يؤكدها مالك بن نبي في كتابه تأملات بقوله: " والحقيقة الأولى التي تتبادر إلى أذهاننا هي أن الثقافة لا تستطيع أن تكون أسلوب الحياة في مجتمع معين، إلا إذا اشتملت على عنصر يجعل كل فرد مرتبط بالأسلوب الأخلاقي، فإذا قررنا وجود هذا العنصر بوصفه ضرورة منطقية اجتماعية، فإننا نكون بهذا قد وضعنا فصلا هاما من فصول الثقافة، وحققنا شرطا أساسيا من شروطها وهو: المبدأ الأخلاقي"[26].

ومجمل القول، أن مالك بن نبي قد أحالنا إلى حقيقةمفادها أنالتربية على المواطنة من حيث هي قيم وسلوكيات وممارسات، تستلزم توفر شروط ثقافية وأخلاقية، يصبح بموجبها غالبية أفراد المجتمعواعين بقيم الارتباط السياسي العقلاني، ويصبحون بذلك فاعلين في الحياة الاجتماعية فعل خلق وإبداع متجدد، بكل بحرية وطواعية، أي بدافع الالتزام الذي ينبع من ذواتهم، ويمنحهم الرغبة فيما يعملون والاقتناع بما يعملون، إذ يكون الرقيب عليهم داخليا هو ضميرهم الوطني، وما ذلك إلا لأنهم يعملون في ظل نظام ديمقراطي، يوفر لهم الضمانات المؤسساتية،التي يترك فيها الإحباط مكانه للطموح الذي يمكن لأي مواطن مخلص أن يحققه، بصفته محبا ممارسا للحرية والديمقراطية.

ثالثا: فكرة التحرر كأساس لمجتمع المواطنة المنشود

تكمن ثورة التغيير الفعلية–في نظر مالك بن نبي–في تحرير الإنسان من عقدة النقص والانبهار بمظاهر ما عند الأوروبيين، وبتحريره من الترسبات الوراثية في مجال التواكل والخرافة، وبإعادة اللحمة بينه وبين قناعاته وعقيدته وسلوكه وعمله، فليس المهم في بناء الإنسان الجديد أن نغير له نمط أو زي لباسه، وليس المهم أن نوسع له ملكيته ونزيد في مقتنياته، ولكن المهم أن نقتلع القابلية للاستعمار من عالمه الداخلي، حتى تنطلق طاقاته لتصفيته من عالمه الخارجي[27].

ومن هنا فالبدء من الذات هو أساس الإصلاح والتغيير عند مالك بن نبي، وحتى تتحقق ثورة الحرية والتقدم لابد من تعديل شخصية الإنسان وتوجيهيها الوجهة القرآنية الصحيحة حتى تتعانق جوانب الروح والمادة فيها. وليس تغيير الذات أمرا مستحيلا ، ما دام الله قد زود الإنسان بالإرادة وجعلها هي الأداة الفاعلة في كل بناء. بل أكثر من ذلك فإن الطاقات الإرادية التي زود الله بها الإنسان تكاد تكون مطلقة، إذ جعل

تغيير أوضاع الخلق بإرادته مشروطا بتغييرهم هذه الأوضاع بدءا بأنفسهم:" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم "[28]، وهي الآية التي كثيرا ما يستشهد بها مالك بن نبي، في كل حديث يدور حول التغيير.

وبمثل هذه الإرادة نجحت مجتمعات عديدة في الانتصار على الذات وعلى الاستعمار، من أجل تحرير الأرض والإنسان، والمثال القريب على ذلك ما حصل في الجزائر، وخاصة ما قامت به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين حيث لجأت إلى التربية لصياغة الناشئة صياغة جديدة عربية إسلامية متحررة من أساليب الفرنسة والتنصير والإدماج فكان من التربية تغيير الذات، وكانت الثورة التحريرية التي تهدف إلى الحفاظ على شخصية الجزائر الإسلامية العربية[29].

ولذلك نجد بن نبي يؤكد على ضرورة تولي التربية مهمة تطبيع الإنسان المسلم اليوم على قيم الديمقراطية الحقة، وذلك بتخليصه من القابلية للاستعمار ومن كل المشاعر والأفكار التي تحط من قيمته وألا يقبل الاعتداء على حريته، أي أن يتخلص من العبودية، كما يتخلص هو بدوره من الدوافع السلبية وهذا بألا يستصغر غيره ويحط من قيمتهم ويعتدي على حرياتهم[30].

فالديمقراطية مظهر من مظاهر الحياة الراقية، وأسلوب حياة في المجتمع المتحضر، وتكمن دلالتها النفسية والاجتماعية في قيمة الفرد كإنسان حر، وهي القيمة التي تجعل الفرد يتخلص من كل صنوف التخلف والهيمنة الاستعمارية. وهذا ما ذهب إليه مالك بن نبي بقوله: " فالإنسان (الحر) أي الإنسان الجديد الذي تتمثل فيه قيم الديمقراطية والتزاماتها، هو الحد الايجابي بين نافيتين تنفي كل واحدة منهما هذه القيم وتلك الالتزامات: نافية العبودية ونافية الاستعباد "[31].

يبدو أن هذا المعنى الذي قدمه مالك بن نبي للديمقراطية يتفق مع المفهوم الحديث " للمواطنة باعتباره أفقا يتجاوز الصبغة القانونية الحقوقية، ليشير إلى حركية اجتماعية، هدفها تحرير الأفراد ودفعهم للعمل بفعالية، للتمكن من تركيب تاريخيهم، والمساهمة في بناء مجتمع ديمقراطي، يضمن مختلف حقوقهم كما يضمن حريتهم وكرامتهم[32].

الخاتمة

بناء على ما سبق، يمكن القولإن فكرة المواطنة حاضرة بقوة في المشروع الحضاري للعلامة "مالك بن نبي" وهي عنده تتجاوز مفهومها التقليدي، الذي يجملها في التوازن الحاصل بين التزام أفراد المجتمع بالقيام بواجباتهم وبين مطالبتهم بحقوقهم، إلى تغليب الالتزام بالواجبات على المطالبة بالحقوق، لأن ذلك هو الذي يجعل المعادلة كفيلة بتحقيق الحضارة وتقدمها، ولعل أخطر العوامل التي حالت دون تأسيس ثقافة المواطنة عندنا، هو عدم بلوغ وعينا بمعادلة الحق والواجب مرحلة النضج، الذي ينقدها من الصفرية.

ولا يحسبن أحد أن ثقافة المواطنة قابلة للاستعارة كالأشياء، أو النسخ كالصور، بل هي ثمرة لعملية اجتماعية يمارسها كل مجتمع من داخله، وفقا لشروطه الخاصة، وإذا كانت المواطنة قيمة إنسانية وحضارية فان تبنيها لا يفيد شيئا دون العمل بها، بالتعبئة والتثقيف بها والتحلي بأخلاقها، لذلك يبقى الإنسان هو الشرط الأساسي لكل بناء، ومنه ينبغي أن يبدأ الاستثمار، ويكون هو الذي يستثمر في الطبيعة والزمن، بتسخيرهما التسخير العقلاني الفعّال.

إن الاستثمار الاجتماعي في الإنسان، هو الذي يطبع خطط التنمية، بالاعتماد على الذات ويعطيها بعدا محررا من التبعيات، التي على رأسها التبعية الاقتصادية، فالخروج من وضع التخلف يستلزمالإسراع

بإعداد الإنسان وتنمية كفاءاته ومؤهلاته، وبنائه فكريا ونفسيا وروحيا، في إطار وطنيته وتاريخ حضارته والانتقال به من حالة الفرد إلى حالة الشخص، ومن حالة الرعية إلى حالة المواطن.

على هذا الأساس، ينبغي أن لا تظل المواطنة فكرة للتأمل الفلسفي، أو التحليل العلمي، أو المجاز الأدبي بل ينبغي تفعيلها بالممارسات المعارضة للهيمنة، والثورة على كل أشكالها باسم الحقوق والحريات، ولا شك أن ذلك يتطلب فاعلين أولي استعدادات فكرية ومعرفية وقناعات بقيم المواطنة تؤهلهم لبلورة مشروع حضاري ديمقراطي تتضافر فيه إرادات النخب المثقفة والنخب السياسية، كما لاشك أن تحويل المواطنة إلى ممارسة، يتطلب تفعيل الروابط الاجتماعية، لأن ذلك يرفع من نشاط المجتمع خصوصا إذا كانت العلاقات الاجتماعية موصولة بمبرراتها الروحية.

وهناك شرط آخر يجعل المواطنة ممارسة نافعة، هو تفعيل التربية الاجتماعية، وجعلها هادفة لتنشئة إنسان متكامل ومتوازن عقليا ووجدانيا وروحيا،والثقافة الإسلامية، بهذا الخصوص، تمثل النموذج الأمثل لتنشئة إنسان متكامل، فهي قادرة على أن تكون وسيلة فعالة لتغيير الإنسان وتربيته على العيش مع أقرانه، وتشكيله معهم قوى مغيرة لشروط الوجود، هذا ما يوافق التربية على المواطنة، بصفتها تربية على القيم، لا تربية على المعارف وبصفتها تربية إدماجية فعالة وديناميكية، وبصفتها تربية منمية للديمقراطية كأسلوب حياة يعزز التعايش والقدرة على التصرف المدني الملتزم.

وفي نهاية هذا البحث وجب التأكيد على التوصيات الآتية:

1- إن التربية على المواطنة يجب أن تنطلق من شروط ثقافية وأخلاقية، قادرة على إحداث الوعي بأهمية الروابط الاجتماعية بواسطة فاعلين اجتماعيين يصدر فعلهم عن التزام ذاتي لا عن إلزام خارجي.

2- إن المعادلات الجديدة التي تؤطر الفعل المدني تشدد على أهمية تربية جديدة للإنسان الجزائري تقوم على مبادئ ثقافة المواطنة والمشاركة الفعلية.

3- إن عملية إعادة الاعتبار إلى الإنسان وتفعيل دوره في البناء الاجتماعي ركيزة أساسية في سبيل تأسيس ثقافة المواطنة، التي تظهر بصورة ممارسات اجتماعية عبر المجتمع المدني والثقافة المدنية والشخصية المدنية.

4- لا يمكن ممارسة حقوق المواطنة بدون رسوخ ثقافة المواطنة في الوعي الاجتماعي العام، أي تحويل ثقافة المواطنة من مجرد شعار إلى واقع عملي ملموس مؤسس لمجمل القيم والعلاقات والتبادلات الثقافية والأخلاقية والاجتماعية.

5- ثقافة المواطنة من حيث هي رابطة اجتماعية يجب أن تحاط بشروط اجتماعية وثقافية ومؤسساتية ترعاه وتضمن استمراره وتطوره مؤسسات المجتمع المدني وفق مجموعة من الآليات المبنية على التواصل والمشاركة.

6- إن من بين الشروط الأساسية لتأسيس ثقافة المواطنة ضرورة تنمية الثقافة المدنية التي تكرس الوعي المدني وتزيد من التماسك الاجتماعي، وتدعم قيم التسامح والتضامن والتعاون، والإدارة السلمية للصراع وقبول التنوع والاختلاف.

الهوامش:

[1]–Alain Touraine(1997).**Pourrons–nous vivre ensemble?**.Paris :Fayard،p 246.

[2]–مباركية، منير (2013).**مفهوم المواطنة في الدولة الديمقراطية المعاصرة، وحالة المواطنة في الجزائر**. بيروت:مركز دراسات الوحدة العربية، ص 161.

[3]–مالك، بن نبي(1986).**شروط النهضة**. ترجمةعمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص 32.

[4]– المرجع نفسه، ص 33.

[5]–المرجع نفسه، ص 34.

[6]– مالك، بن نبي (2002).**تأملات**.ط2، دمشق، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص 30.

[7]–مباركية، منير، مرجع سابق، ص ص 178–179.

[8]–أنظر: عزمي، بشارة (2007).**في المسألة العربية، مقدمة لبيان ديمقراطي عربي**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،ص 92.

[9]–بركات، محمد مراد (2003).<<فلسفة مالك بن نبي الحضارية.>>**مجلة التسامح** (سلطنة عمان) ، العدد الثالث، ص 176.

[10]–بولرباح، عسالي (2014).<<أولوية الربيع العربي الاقتصادي في ضوء كتابات مالك بن نبي.>>**المستقبلالعربي**:السنة 36، العدد 240، فيفري، ص 29.

[11]– مالك، بن نبي (2013).**المسلم في عالم الاقتصاد**. ط3، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيعوالنشر، ص 76.

[12]– دهيمي، زينب وبوبيش، فريد (2013).<<الاستراتيجية التربوية للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.>>**مجلة دراسات نفسية وتربوية**(جامعة ورقلة الجزائر)، العدد 11، ديسمبر، ص 131.

[13]–مالك، بن نبي (2002).**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**. ط2، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر،ص 41.

[14]–قرواز، الداودي (2014).<<فلسفة التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.>>**مجلة العلوم الاجتماعية** (جامعة سطيف–الجزائر)، العدد 19، ديسمبر، ص 28.

[15]–الحوراني، محمد عبد الكريم (2013). **المجتمع المدني، مقاربة البنى المعيارية للمجتمع المرن**. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ص 103.

[16]–دهيمي، زينب وبوبيش، فريد، مرجع سابق، ص 137.

[17]–مالك، بن نبي (1986).**ميلاد مجتمع(شبكة العلاقات الاجتماعية)**.الجزء الأول، ط3، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص 29.

[18]–المرجع نفسه، ص 37.

[19]– المرجع نفسه، ص 48.

(20)–نقيب، عمر (2015).<<منظور مالك بن نبي لتناول المشكلة التربوية في العالم الإسلامي : نحو تأهيل الإنسان المسلم لاستئناف وظيفته في التاريخ.>>**مجلة نقد وتنوير**(مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية–إسبانيا) العدد الأول، ماي، صيف، ص 288.

(21)–مالك، بن نبي (2002).**وجهة العالم الإسلامي**. ط2، ترجمة عبد الصبور شاهين، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص ص32–33.

(22)–مالك، بن نبي (1986). ميلاد مجتمع (شبكة العلاقات الاجتماعية)، مرجع سابق، ص 100.

(23)– عبد الحسين، شعبان (2013).<<أية علاقة جدلية بين التربية والمواطنة؟ الاشتباك والدلالة.>>**مجلة المنتدى**(الأردن)،المجلد 28، العدد 258، سبتمبر –ديسمبر، ص ص44–45.

(24)– الشامي، الأشهب يونس (2013). <<سوسيولوجيا المواطنة أم "علم تربية المواطنة؟" أنماط العلاقة بين النسق الاجتماعي والنسق التربوي ضمن خصوصية التربية على المواطنة.>>**إضافات (المجلة العربية لعلم الاجتماع)** العددان 23– 24، صيف وخريف، ص 111.

(25)–صباغ، علي (2013).<<معالم تربوية في الفكر الحضاري عند مالك بن نبي.>>**مجلة جيل العلوم الإنسانيةوالاجتماعية**(مركز جيل البحث العلمي–الجزائر)، العدد 01، أكتوبر،ص 20.

(26)–مالك، بن نبي (2002).تأملات، مرجع سابق، ص 148.

(27)– عبد الوهاب، خالد(2009).<<فكرة التحرر في مشروع مالك بن نبي الحضاري.>>في: أحمد عرفات، القاضي [وآخرون]: **فلسفة الحرية: أعمال الندوة الفلسفية السابعة عشرة التي نظمتها الجمعية الفلسفية المصرية بجامعة القاهرة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص 228.

(28)– القرآن الكريم (مصدر). سورة الرعد: الآية 11.

(29)–عبد الوهاب، خالد، مرجع سابق، ص 230.

(30)–دهيمي، زينب وبوبيش، فريد، مرجع سابق، ص 143.

(31)–مالك، بن نبي (2000).**القضايا الكبرى**. ط2، دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر،ص 139.

(32)–كمال، عبد اللطف (2012).**مجتمع المواطنة ودولة المؤسسات في صعوبات التحديث السياسي العربي**.الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس(سلسلة: أبحاث ودراسات رقم 54)، ص 50.